الانسان العاقل العاقل في شمال إفريقيا

دلت بعض الدراسات التي أقيمت من طرف باحثين أمثال الباحثة شاملا Chamla وكامبس Camps وبالو Ballu في عدة مواقع بشمال إفريقيا على وجود سلالتين رئيسيتين في شمال إفريقيا تعودان إلى العصر الحجري القديم المتأخر، حيث ساد شمال إفريقيا الانسان الايبيرومغربي الذي ينتمي إلى مشتى العربي، حيث يتواصل وجوده خلال فترة العصر الحجري الحديث في التل والسواحل صانع الفخار المخدد، أما النوع الخشن الآخر من نمط الشبه متوسطي، سمحت الدراسات بالتعرف على هذه الشعوب في الفترة المؤرخة ما بين الألفية السادسة والثالثة.

الانسان المشتوي

قدمت الحفريات المتتالية للمدافن الجماعية لمواقع افالو بورمال وموقع كلمناطة، واد القطار، التروغلوديت، مغارة المالح بوهران، وموقع تافورالت عدد كبير من البقايا العظمية للإنسان، والتي يزيد عددها عن 500 فرد، فهذه الدراسات التي أجريت على هذه الأخيرة وضحت الصورة لتحديد الخصائص التشريحية لشعوب هذه الحضارة ولاحظ الباحثون نوعين من نوع الإنسان العاقل العاقل، وهما مختلفين مورفولوجيا، وقد عمروا بلاد المغرب خلال فترة نهاية البلايستوسين الأعلى وهما: شعوب مشتى أفالو رائد الحضارة الإبيرومغربية وشعوب ما قبل المتوسطي رائد الحضارة القفصية.

تم العثور على بقايا انسان مشتى العربي ومشتى أفالوا في العديد من المواقع في الساحل الشرقي الجزائري، وأول تشخيص دقيق لهذا النموذج قام به الباحثان بول وفالوا وأطلق حينها تسميته على نمط موقعان عثر على نماذج منه فيها، هما قرية مشتى العربي بشلغوم العيد بميلة ومغارة أفالو بسوق الإثنين ببجاية، فضلا عن مواقع أخرى مثل الداموس الأحمر، جبل الفرطاس.

يتميز إنسان مشتى العربي بقامة تصل 1.74 م عند الرجال، و1.63م عند النساء، وتصل سعته الدماغية إلى حوالي 1650 سم^3، ويبدو أنه كان قوي البنية والخشونة، عريض الكتفين، له سواعد وسيقان طويلة مقارنة مع العضد والفخذ واليد، والأرجل طويلة نوعا ما، أما الجمجمة ذات شكل بيضوي أو خماسي، وهي ذات طول أكثر من العرض في نموذج أفالو وتافوغالت، أما الجبهة فقليلة البروز ومتراجعة نسبيا، وأقواس الحواجب متصلة، أما الوجه فيتميز بالقصر والعرض، أما محاجر العيون فمستطيلة الشكل والذقن بارز جدا، شكل الأنف بارز ومحدب[1]، أما زاويتا الفك الأسفل الداخلية والخارجية فكثيرا ما تكونان منحرفتين، ويمتاز بأنف طويل ورقيق، وتبدو القمم تحت الخشائية كبيرة، أما النتوء الوجني أو العارضي ضخم، أما سقف خده واسع وقوس من الأسنان المتباعدة أو المتنافرة.

أصول الانسان المشتوي

[1] سميرة هميل، العصر الحجري الحديث التلي بالساحل اغربي للجزائر (وهران انموذجا)، أطروحة دكتوراه في آثار ما قبل التاريخ، معهد الأثار، جامعة الجزائر 2، 2017-2018، ص 50.

من المحتمل أن يكون هناك أصل مشترك بين الانسان العاقل الأوربي المعروف بكرومانيون إفريقيا وأوربا، وأن كلاهما قد ينحدران من أصول إفريقيا القديمة، بحيث أن العاتريون الأواخر قد هاجروا إلى أوربا وهم من الفروع المعروفة بالكومانيون، وإنسان مشتى العربي يختفي شيئا فشيئا تحت موجة من هجرات إنسانية أسيوية اجتاحت بعد الفترة الجليدية الأخيرة "فورم"، وتواجده ينحصر في نطاق محدود في المغرب الأقصى وجزر الكناري في أواخر النيوليتي.

استعرض كامبس أصول مشتى العربي التي درج الباحثون على الاعتقاد بها؛ من خلال التشابه الكبير الموجود بينه وبين إنسان كرومانيون، وبالتالي فأصول مشتى العربي خارجية، فقد خيل للبعض أنه جاء من **أوربا**، عبر اسبانيا ومضيق جبل طارق، والرأي الثاني انه جاء من **المشرق** والمحدر من الانسان العاقل الذي ظهر في فلسطين، وأن من هذا الموطن خرج فرعان؛ فرع أوربي، نشأ عنه إنسان كرومانيون، وفرع إفريقي، نشأ عنه إنسان مشتى العربي.

ثم بعد ذلك يرفض كامبس الرأيين معا، ويقدم حجج في ذلك، ويقول في هذا الشأن :"ومما يؤسف أن الأطروحتان تعانيان اثنتاهما من عيوب ونواقص تجعل من الصعب القبول بهما، فلا سبيل إلى ترسيم هجرة كرومانيون عبر اسبانيا، وليس الأمر يقف عند هذا الحد؛ بل إن الجماجم التي تعود للعصر الحجري الأعلى في أوربا تبين عن خصائص أقل بروزا من تلك المميزة لجماجم من يقال إنهم أحفادهم المغاربيون، ويمكن أن نسوق الحجج نفسها في رد الفرضية القائلة إن مشتى العربي يعود بأصله إلى المشرق الأدنى فليس هناك وثيقة إناسية واحدة من المنطقة ما بين فلسطين وتونس من شأنها أن تدعم هذه الفرضية، ثم إننا نعرف بسكان الشرق الأدنى في أواخر العصر الحجري الأعلى، فهم النطوفيون Natoufiens من النوع ما قبلي المتوسطي، وهو نوع يختلف عن نوع مشتى العربي...، يبقى لنا إذا الأصل **المحلي**؛ وهي الفرضية الأبسط، ولربما تكون بساطتها هي التي منعت من الأخذ بها، لكنها اليوم قد صارت الأكثر بداهة؛ منذ ان وقع اكتشاف الانسان العاتري، ويسلم اليوم علماء الإناسة المتخصصون في منطقة شمال إفريقيا} أمثال فيريمباخ Ferembach وشاملا Chamla بوجود نسب مباشر وموصول بين النياندرتاليين في منطقة شمال إفريقيا ومثالهم إنسان جبل أرحود وأشباه الكرومانيون ومن جملتهم إنسان مشتى العربي، ولا يبعد أن يكون الانسان العاتري المكتشف في دار السلطان هو الوسيط بينهما، لكن بعد أن اكتسب خصائص الانسان العاقل الأول.

أصناف الانسان المشتوي: حسب ما قدمته الباحثة شاملا يمكن تمييز أربعة أنماط من سلالة الانسان المشتوي، تختلف عن بعضها البعض في المواصفات الجسمية، وذلك بعد فحص ودراسة الكثير من البقايا العظمية لها، وهي على النحو التالي:

- النوع الأول: يتميز هذا النمط بجمجمة ضخمة وغير متناسقة مع الوجه وأكثر طولا، وصاقورة منخفضة، وحاجبين مرتفعين وهو الأكثر قدما وقليل التواجد وهو في طريق الانقراض.

- النوع الثاني: يتميز هذا النوع بجمجمة صغيرة الحجم، عالية وضيقة، كما أنها مستطيلة الشكل، حاجب قليل البروز، وله وجه طويل وضيق، كما يمتاز بهيكل هزيل جدا.
- انوع الثالث: يتميز هذا النوع بقصر الرأس الذي له قمة جمجمة معتدلة الارتفاع وجبهة مستقيمة وعالية، أما محاجر العيون فقليلة الارتفاع، كما يمتاز بأقواس الحاجب قوية ووجه صغير وقصير.
- النوع الرابع: يتميز برأس متوسط ومستطيل، ويبدو خشنا، أما قمة جماجمهم مسطحة، وأقواس الحاجب قوية ووجه صغير وقصير.

1

2

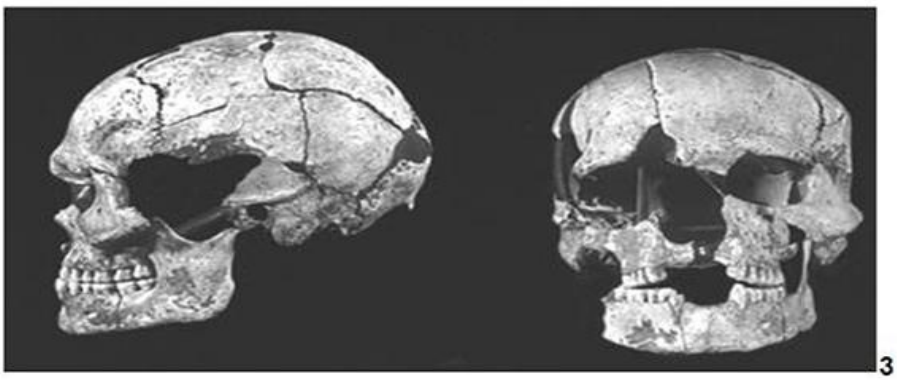
3

يشير كامبس أن المشتويين لم ينقرضوا بانتهاء الحضارة الايبيرومغربية، حيث تواجدوا خلال الحضارة القفصية والعصر النيوليتي من خلال بعض المواقع مثل حاسي الأبيض في مالي، لكن إلى جانب الانسان القفصي، وحتى مرحلة فجر التاريخ والفترة البونية، وكذلك العصر الروماني، ومازال لهم تأثير على ساكنة جزر الكناري، غير أننا لا نستطيع أن نضع هؤلاء في أسلاف البربر مباشرة.

أما إنسان مشتى أفالو فقد مر المنطقة في حدود 8000-6000 ق.م ويحظى بمميزات خاصة بحيث يظهر بجمجمة ذات سعة دماغية كبيرة وحاجبين قويان ومتباعدين مع وجه متدفق نحو الأمام وعريض، الأنف بارز وفك سفلي ضخم، تتراوح قامته بين 1,62 م إلى 1,80م، معدل الأطراف طويلة نوعا ما.

انسان ما قبل المتوسطي Protoméditerranéen

ظهر هذا النوع -فجر المتوسطي- في حدود الألف الثامنة قبل الميلاد في وسط غرب تونس وشرق الجزائر وهو صاحب الحضارة القفصية ثاني وآخر حضارات العصر الحجري القديم المتأخر في شمال إفريقيا، حيث عرف انسان مشتى العربي الخشن تراجعا تدريجيا خلال العصر النيوليتي والمتزامن مع انتشار نوع الفجر متوسطي، الذي نجد له بقايا تتمركز في بعض المواقع الشرقية للبلاد، خلال الألفية الرابعة يتراجع نوع مشتى أفالو ليكثر نوع الفجر متوسطي النحيف، كما نميز امتزاج سلالة القفصيين ومشتى العربي خلال فترة النيوليتي القفصي، خاصة في موقع المجاز 2، أين عاش مشتى العربي بالقرب من الانسان القفصي.

مميزاته:

- دلت التنقيبات التي أجريت في موقع المجاز II على أن انسان ما قبل المتوسطي يبلغ طول الرجال بحوالي 1,75م والنساء 1,62م.
- حجم المخ يبلغ 1530 سم^3.
- يتميز بجمجمة مستطيلة أكثر تناسقا من جمجمة الانسان المشتوي، والقحف معتدل وصاقورة مرتفعة.
- محاجر العيون يغلب عليها الشكل المربع وأنفه ضيق.
- النتوءات العظمية غير بارزة، وزاوية الفك ليست منحرفة إلى الأمام وهي الخاصية الأكثر شيوعا.
- الوجه أكثر استقامة واستدارة، وفي الغالب طويل.
- الجبهة أكثر ارتفاعا، والعظم الفاصل بين محجري العين فيه قليل البروز والفكان أقل قوة.
- مقاسات الأضراس كبيرة.

أصنافه: يقسم بعض المختصين الانسان فجر المتوسطي إلى نوعين هما:

- عنصر مستطيل الرأس ويمتاز بوجه طويل، وصاقورة مرتفعة، وقامة طويلة والأنثى نحيفة، ويمثله إنسان مجاز II.
- عنصر مستطيل الرأس ويمتاز بوجه متوسط، وصاقورة منخفضة، وله قامة طويلة والوجه بارز، وهو أقل انتشارا من النمط الأول ويمثله إنسان منطقة عين دكارة القريبة من تبسة.

بذهب معظم الباحثون إلى أن المشتويين وأوائل المتوسطين كانوا يعيشون في وقت واحد، أي ما بين الألف الثامنة والرابعة قبل الميلاد، غير أن النوع الأول أقدم من الثاني، ومع بداية العصر الحجري الحديث انتشر أوائل المتوسطين في كامل مناطق شمال افريقيا، بينما اتجه المشتويين غربا، وانعزلوا في الجبال والكهوف، لينتهي بهم الطاف في جزر الكناري، ومن الممكن أن يكونوا من أصل مشترك واحد لا سيما وأنهم يتشابهون في طقوس الدفن والطقوس الجنائزية بشكل عام، في حين يستبعد قزال ذلك، خاصة فيما يخص انحدار الانسان الفجر المتوسطي من الانسان المشتوي، كما أن النوع الأول سيخلف الثاني في منطقة شمال إفريقيا بالتدريج، ففي العصر النيوليتي تكثر أعداده في الجهة الغربية، أما الانسان فجر المتوسطي فكان يتواجد أكثر في الجهة الشرقية.